الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الزهد المسلمين فى العصر الحاضر

« ان صوتى قد أوقد النار القديمة(١) فى بلاد إيران
ولكن العرب لا يعرفون شيئا عن نغماتى الشجية »
(اقبال)

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

شدا صديقنا الفضال الشاعر الفيلسوف الدكتور السر محمد إقبال بهذا البيت فى ديوانه « پيام مشرق » (أى رسالة الشرق) منذ ثلاث عشرة سنة ، ولكنه لم يسمع صدى المعرفة الحقيقية « لنغماته الشجية » من العرب إلى اليوم . وثلاث عشرة سنة مدة طويلة . لأن الشيء إذا مر عليه زمن قليل يقال إنه مضى ودخل فى ذمة التاريخ ، وليس كل ما دخل حصن الماضى نال رعاية التاريخ . لأن مخالب التاريخ الحديدية لا تقتطف إلا ماهو مؤثر مباشرة فى الحوادث المادية ولا تهتم بوجود الكائن الحى بنفسه أيا كان، ولكن هناك أشياء خارجة عن وصول مخالب التاريخ ومؤثرات الزمن مع كونها مؤثرة فى الحوادث المادية . وتلك الأشياء هى الحقائق الملهمة ، ومنها الشعر أو « النغمات الشجية » كما عبر الدكتور . فالحقيقة الملهمة شيء خالد بعيد المرام عن تلاعب الزمن ، وعزيز المنال من مخالب التاريخ ، تظمأ الحياة الانسانية إلى مناعمته فى كل زمان ، وتتطلع إلى مؤانسته فى كل مكان وإن كانوا لا يجاهرون بالعلم به . كل ما كنا خلقاء أن نستفيده هو صورة الحياة ، كما عرفها وعاناها ، قاسق عظيم

وليت دهبلاً ترك لنا مذكرات ! فانه متمرد ظريف ، وليس أحب إلى المرء من الوقوف على مظاهر التمرد ، ولكن التمرد صنيعه فى حياته ، وصنيع شعره معه — أو أكثره — فلو أنه كتب مذكرات لما أعوز خصومه الحطب

* * *

لو ذهبت أذكر ما كنت أتمنى أن أجد فيه كتاباً ، لما فرغت ، فالهذا آخر ، حسبى ماينت ، وليكن كاشارة الفهرس

ابراهيم عبد القادر المازنى

(١) إشارة إلى أن النار كانت تعبد فى بلاد إيران قبل الاسلام

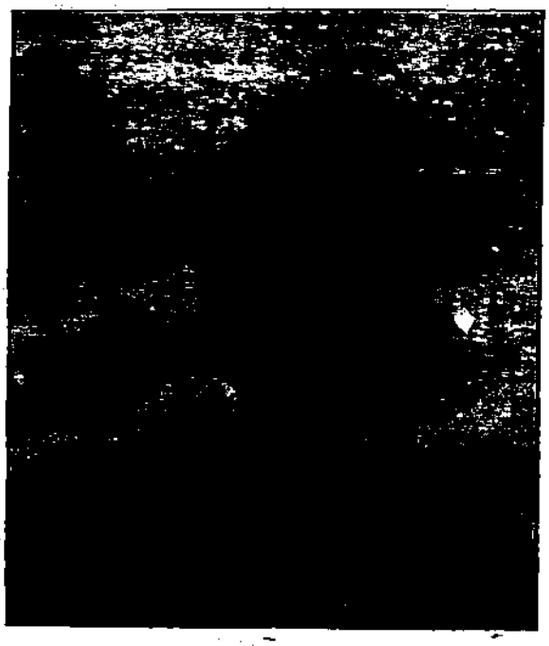

الدكتور محمد اقبال

وعلى هذا أريد أن أعرف إخوانى الناطقين بالضاد بتلك « النغمات الشجية » وأن أكون على الأقل ترجماناً لها إن لم أكن راوية ، فأقدم اليوم اليهم على صفحات (الرسالة) ترجمة حياة الدكتور بالايجاز ، وسأتبع ذلك بحديث عن شعره وفلسفته وآرائه فى نواحى الحياة المختلفة إذا وفقنى الله لذلك

انحدر الدكتور السر محمد إقبال من سلالة وثنية عريقة فى المجد والشرف من طبقة « پَنْدِتْ » القاطنة ببلاد كشمير فى شمال الهند . و « پندت » لقب يلقب به أهل العلم والفضل من طبقة البراهمة التى هى أرفع الطبقات وأعلاها شرفاً وعلماً ونفوذاً فى النظام الاجتماعى الوثنى فى الهند ، وقد أشار الدكتور إلى ذلك إذ قال :

مرا بنگر كه درهند وستان ديگر نمى بينى
برهمن زاده رمز آشنای روم وتبريزاست
« انظر إلى فانك لا تجد فى الهند مثلى من
سلالة برهمن ولكنه يعرف رموز روم وتبريز[1] »

تشرفت عائلة الدكتور باعتناق الاسلام قبل مائتين وخمس وعشرين سنة . وذلك أن أحد أجداده اتصل بولى من أولياء الله من الصوفية المسلمين فأشرب قلبه حب الاسلام فأسلم . وكان من

(١) إشارة إلى رموز تصوف مولانا جلال الدين الرومى الصوفى المسلم الشهير وإلى رموز شعر شعراء تبريز مثل حافظ وسعدى

آثار تلك الحادثة أن حسن الاعتقاد فى الصوفية المخلصين لا يزال من الأوصاف المميزة لعائلة الدكتور إلى اليوم

ولد الدكتور محمد إقبال فى سـنة ١٨٧٦ ميلادية فى بلدة سيالكوت مسقط رأس فيلسوف الاســـلام العلامة الشهير عبد الحكيم السيالكوتى من أقليم پنجاب فى شمال الهند. فلما بلغ سن التعليم أدخله أبوه فى مكتب من المكاتب الاسلامية فى تلك البلدة ، ومن وهبه الله الذكاء المتوقد والخلق الحاد ظهرت بوادره منذ نعومة أظفاره . كذلك الدكتور إقبال فانه لم تمض عليه مدة قليلة حتى أتم دراسة المكتب فأدخله أبوه فى المدرسة ، وفى المدرسـة أيضاً بقى مثالاً لحدة الذهن وموضع الاعجاب من جميع أساتذته . فانه لم ينتقل من فصل إلى فصل ولم ينل شهادة بعد شهادة إلا بتفوق على أقرانه وباستحقاق مساعدة مالية شهرية من قبل الحكومة جائزة لنبوغه إلى أن أتم دراسته الثانوية ، وبعد إتمام الدراسة الثانوية دخل الدكتور كلية فى نفس البلدة ، وكان فى تلك الكلية أحد كبار علماء الدين أستاذاً للغة الفارسـية والعربية وهو شمس العلماء مولانا مير حسن [1] الذى كان يشار اليه بالبنان فى الأدب الفارسى والعربى فتتلمذ له الدكتور ونبغ فى الفارسية كما تعلم منه العربية أيضاً . وبعد إتمام دراسـة الكلية انتقل الدكتور إلى كلية الحكومة ببلدة لاهور حاضرة اقليم پنجاب ونال منها شهادة B. A. بتفوق حيث استحق مداليتين ذهبيتين والمساعدة المالية الشهرية من قبل الحكومة . وفى هذه الأثناء انتقلت خدمات المستشرق الشهير السر توماس آرنلد من كلية عليكره إلى كلية لاهور . وكان السر آرنلد هذا مشهوراً بسعة اطلاعه فى علوم الفلسفة ، وكان عند الدكتور إقبال أيضاً ميل غريزى إلى الفلسفة حيث لم يترك دراستها فى نيل جميع شهاداته الماضية فتتلمذ للسر آرنلد . فكان السر آرنلد يعترف دائماً بذكاء تلميذه المتوقد واستعداده للفلسفة ويفتخر به إلى أن أتم الدكتور دراسة الجامعة ونال شهادة M. A. مع مدالية ذهبية

عين الدكتور بعـد إتمام دراسته مباشرة أستاذاً للفلسفة والسياسة الدنية فى الكلية الشرقية بلاهور ثم أستاذاً للفلسفة واللغة الانجليزية فى كليـة الحكومة بلاهور . فصنف فى أيام تدريسه كتاباً فى السياسة الدنية باللغة الأردية . وكان الدكتور طول مدة التدريس فى الكليتين حسن الصيت فى العلم والفضل عند أساتذتهما ، وممدوح الخلال مأثور المحامد عند تلاميذه

لم يسمح للدكتور عشقه للعلوم وطموحه إلى التوسع فيها بأن يقنع بتلك الوظيفة ؛ فهجر فى سنة ١٩٠٥ وطنه وأقاربه ثلاث سنوات طلباً للتوسع والمزيد فى الفلسفة والقانون والتحقيقات العلمية الأخرى إلى انجلترا والتحق بجامعة كمبردج ونال منها شهادة فى فلسفة الأخلاق ، ثم انتقل إلى ألمانيا والتحق بجامعة مونيخ فيها ونال منها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ، ثم رجع إلى انكلترا والتحق بجامعة لندن ونال منها شهادة المحاماة (Bar — at — Law)

إن كثيراً من طلاب الشرق حينما يذهبون إلى الغرب يجدون أنفسهم فى عالم جـديد لم يخطر ببالهم ولا هجس فى ضمائرهم ، إذ الفوضى الأخـلاقية قد استحكمت عراها ، والأباحية قد شيدت وطائد رباها ، وأبواب المفاسد مفتوحة ، ودواعى الخلاعة مسروحة . فيندفعون فى تياره ويضيعون فيـه أوقات فراغهم حتى أوقات أشغالهم ، ولـكن الدكتور لم يضيع أوقاته ، بل كان يستغل حتى وقت فراغه فقد سعى فيه لخدمة الاسلام بتبليغه إلى العوام ، إذ ألقى فى فصول قيامه فى انجلترا ست محاضرات فى الاسلام بين حشد الخاص والعام . وقد منح الله الدكتور العبقرية الشاملة وأسبغ عليه جميع مزايا النبوغ ، فهو ناثر بليغ كما هو ناظم مطبوع ، وكاتب بارع كما هو خطيب مصقع فكان لمحاضراته رنة بين الناس ووقع حسن فى أوساط العلم والأدب

وإذا كان غاية مايبتغيه الأستاذ من تلميذه ويتمنى له ، لمكوفه على تعليمه ومكابدته فى تهذيب نفسه وتنوير عقله ، أن يبلغ منزلته فى العلم والأدب ، وأن يقوم بمهمته أتم قيام ، وأن ينوب عنـه أحسن مناب لا يشوبه خلل ، ولا يعتريه أود ولا يخالطه وهن ولا أمت . فقد بلغ فيـه صديقنا الدكتور إقبال حيث لم تبلغ الآمال والهمم ، إذ الدكتور بذكائه المتوقد ، وفكره الحاد ، وحصافة رأيه ، وطول باعه فى العلوم والصناعات نال أجل مكان وأخص محـل فى أنظار جميع أساتذته فكانوا يتباهون به فى السر والعلن ، ويذكرونه فخراً فى مسامرات الأدب وأندية العلم . وهذا هو الذى حفز أستاذه السر توماس آرنلد أن يفوض إليـه القيام بأعمال وظيفته بجامعة كمبردج لسنة أشهر عند غيابه عنها فخلفه الدكتور أستاذاً بالجامعة ، وقام بالمهمة خـير قيام فتناقلته ألسنة المديح وناطه الذكر الجميل

رجع الدكتور من أوروبا إلى الهند فى سـنة ١٩٠٨ مزوداً

(١) توفى رحمه الله تعالى فى سنة ١٩٢٩ ميلادية

بالعلوم والصناعات ومتأهباً لخدمة وطنه وأبناء دينه ، فاستقبله حشد كبير من جميع الأجناس والطبقات والأديان والملل . وأقيمت فى تكريمه مأدبة فاخرة ليلة وصوله إلى لاهور هنأ فيها أعيان البلد ورؤساء القوم بسلامة وصوله إلى وطنه ، كما اعترف غير واحد من الشعراء والأدباء والعلماء والفضلاء بالقصائد والخطب فيها بعلمه وفضله . ومن ذلك الحين اختار الدكتور لنفسه الحياة الحرة ولم يقبل مناصب الحكومة لكى يجد مجالاً واسعاً لبحوثه العلمية ، وميداناً أوسع لخدمة إخوانه ودينه . فبدأ يمارس مهنة الارشاد القانونى للطالبين

والدكتور بنفسه رجل قنوع ، نزيه ، عزيز النفس ؛ يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور ، كما عبر عن ذلك فى بيت من ديوانه : « رسالة الشرق » قال :

ناز شهان نمى كشم زخم كرم نمى خورم
درنگراى هوس فريب همت اين گداى را

« أنا لا أتحمل دلال الملوك ، ولا جرح الاحسان
يا من انخدعت بالطمع ! انظر إلى همة هذا الفقير »

فقد رفض غير واحد من مناصب الحكومة التى قدمت إليه وآخرها منصب ممثل الحكومة الهندية لدى حكومة جنوب أفريقيا وهو منصب ذو مرتب باهظ وشرف عظيم

اشتغل الدكتور بعد رجوعه من أوربا فى تصنيف ديوانين « أسرار خودى » و « رموز بيخودى » على الترتيب باللغة الفارسية . فنالا إعجاب الجميع من ذوى الفضل والعلم ، وترجم الأول الدكتور نكلسن إلى الانجليزية فذاع به صيت الدكتور فى أوربا وأمريكا فمنحته الحكومة فى سنة ١٩٢٣ لقب « السر » اعترافاً بفضله فى الشعر وطول باعه فى العلوم

وفى سنة ١٩٢٦ أجيره أحبابه وأصدقاؤه وأهالى لاهور على أن يرشح نفسه لعضوية المجلس التشريعى فى إقليم پنجاب . فلم يقبل أولاً . فلما ألحوا عليه كثيراً قبله . فانتخب عضواً بأكثرية ساحقة . فسعى الدكتور سعياً حثيثاً لتخفيف الضرائب الفادحة عن كاهل الفلاح الهندى ، ولسن قانون العقاب لكل من يطعن فى شارع الدين أو أحد رؤسائه من غير دينه هو ، وقد سن فعلاً ، ولتقرير غاية الاصلاح لادمان الخمر عند الحكومة حرمتها التامة تنفذ فى مدة خمس عشرة سنة . وفى سنة ١٩٢٨ أثار الدكتور فى المجلس بحثاً طريفاً استوقف الأنظار ، وهو هل الأراضى من ملكية الحكومة أو ملكية الشعب ؟ وفى سنة ١٩٣٢ عند انتقاد ميزانية الحكومة أثبت بالدلائل الناطقة والشواهد الصادقة أن الأراضى ليست حق ملكية الحكومة فلا يجوز للحكومة جمع المال بالضرائب الفادحة على أراضى الفلاح

وفى سنة ١٩٣١ انتخبته الحكومة عضواً فى مجلس المائدة المستديرة المنعقد فى لندن لاصلاح الهند الدستورى فسافر إلى لندن وعند الرجوع لبى دعوة المؤتمر الاسلامى بالقدس وزار مصر أيضاً وألقى على طلبى منه محاضرة قيمة فلسفية دقيقة فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة موضوعها « الاسلام كالتحول فى التاريخ » باللغة الانجليزية ، ولكن من الأسف لم يقدر أحد من السامعين ولا من أركان إدارة الجمعية أن ينقل تلك المحاضرة القيمة المفيدة إلى العربية للحاضرين أو يكتبها على الأقل وينشرها على صفحات الجرائد للافادة

وفى أواخر سنة ١٩٢٨ دعى الدكتور من قبل جمعية اسلامية ببلدة مدراس حاضرة اقليم جنوب الهند لالقاء محاضرة فى الاسلام ، فلبى الدعوة ، فلما وصل إلى مدراس احتفل به أهالى مدراس من جميع الأجناس والملل احتفالاً باهراً ، وأقيمت فى تكريمه مآدب كثيرة من قبل جمعيات مختلفة منها جمعية العلماء البراهمة وغيرها من جمعيات الوثنيين ؛ ومن مدراس توجه الدكتور إلى حيدر آباد تلبية لدعوة صاحب السمو نظام حيدر آباد فر بأمارة ميسور ، وهى أمارة وثنية كبيرة فى جنوب إمارة حيدر آباد ، فلما وصل بنجلور بلدة من بلادها استقبله حشد كبير من الطلبة والعلماء والوجهاء ، وكان بينهم رئيس الوزراء لأمارة ميسور أمين الملك ميرزا اسماعيل (وهو مسلم) فسافر معهم إلى بلدة ميسور حاضرة إمارة ميسور ، ونزل ضيفاً على الأمير الوثنى مهاراجا ميسور ، وأقيمت فى تكريمه مآدب كثيرة أهمها مأدبة جامعة ميسور التى خطب فيها الدكتور ، وفى هذه المأدبة خطب عالم وثنى كبير وهو أستاذ الفلسفة بالجامعة فقال : « إن المسلمين مهما قالوا إن الدكتور اقبال منهم ، فان الحقيقة أنه منا جميعاً ، هو ليس من ملك دين واحد أو جماعة واحدة ، فان افتخر المسلمون بأنه من أبناء دينهم ، فلسنا نحن الوثنيين بأقل فخراً منهم بأنه من أبناء وطننا الهند » . ومن ميسور توجه الدكتور إلى حيدر آباد ، فاستقبله جمع غفير من جميع الأجناس والملل ، بينهم أركان الحكومة وأساتذة الجامعة وطلبتها وغيرهم من ذوى

الجاه والشرف ، وكان طلبة المدارس مصطفين فى الشوارع والمحطة ويغنون بأصواتهم الشجية « نشيد المسلم » الذى صنفه الدكتور باللغة الأردية وأوله :

جين وعرب همارا ، هندوستان همارا
مسلم هين هم وطن ، هى سارا جهان همارا
« إن الصين والعرب لنا ، (كما) أن الهند لنا
اننا المسلمون ، فالعالم كله وطننا »

نزل الدكتور ضيفاً على سمو نظام حيدر آباد وحظى بالمثول فى حضرة سموه ، وألقى محاضرات عديدة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد ، ثم توجه من حيدر آباد إلى الجامعة الاسلامية بعلى قره تلبية لدعوتها ، فألقى فيها أيضاً غير محاضرة ؛ وجميع هذه المحاضرات التى ألقاها فى مدراس ، وحيدر آباد ، وعلى قره ، ست تحتوى على أعمق الأفكار وأدق المعانى ، فى فلسفة دين الاسلام ، وقد سعى الدكتور فيها لتشكيل علم الكلام الجديد على ضوء الفلسفة الحديثة ، وقد نشرت فى شكل كتاب ونحن مستمدون أن نتحف قراء الرسالة بشىء منها لو تحملوا جفاف الفلسفة فى جنب حلاوة الأدب

وفى سنة ١٩٣٣ دعا الدكتور المغفور له جلالة الملك نادر شاه خان ملك أفغانستان مع عالمين كبيرين هنديين وهما الافوكاتو السيد راس مسعود رئيس الجامعة الاسلامية بعلى قره ، وصديق صاحب الفضيلة الشيخ السيد سليمان الندوى من كبار علماء الدين للاستشارة فى تأسيس جامعة بكابل ، وفى أمور تعليمية أخرى . فلبى الدكتور الدعوة ، وفى هذا السفر صنف الدكتور ديوانه المسمى « مسافر » باللغة الفارسية

وفى سنة ١٩٣٤ سافر الدكتور لزيارة البلاد الاسلامية فى المغرب ولمشاهدة الآثار الاسلامية فى الأندلس وصنف فى هذا السفر ديواناً باللغة الأردية مسمى « بال جبريل » وفى أواخر نفس السنة دعى الدكتور إلى انجلترا لالقاء محاضرات فى فلسفة الدين فى سلسلة محاضرات هيبرت Hibbert Lectures فلبى الدعوة

هذه هى ترجمة حياة الدكتور بالاختصار وموعدنا بالحديث عن شعره المقال الآتى إن شاء الله ؟

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الراشدى

من بدائع شكسبير (١)

حلم منتصف ليلة صيف

A Midsummer Night's Dream

بقلم محمد رشاد رشدى

يحملنا جو القصة أجيالاً عديدة إلى الوراء حيث (ثيزيوس) دوق أثينا يعد قصره للاحتفال بقرانه بملكة الأمازون الساحرة . أما أسلوب القصة فهو ملئ بالصور الخلابة التى تشيع فى الذهن جواً يشبه جو الحلم الغريب . كذلك تنشر أشخاص الجن التى ما تزال تظهر ثم تختفى فى القصة روحاً غريبة نائية حالمة . . . . والحب — سيد خالق الأحلام والخيالات — هو موضوع القصة ... بيد أنه ليس بالحب المداعب اللاهى تحمله السطور فى خفة ورشاقة مقبلاً حيناً مدبراً حيناً آخر . بل هو حب قوى قاهر يبهر النظر والسمع ويأبى إلا أن تعبر عنه الاستعارة والمجاز واللغة الشعرية الحارة . تبعثه من الصدر مثلما تبعث ليلة مقمرة هادئة من ليالى الصيف شعر شاعر من صدره ، أو زفرة عاشق من حنايا ضلوعه

(ليساندر) و (هرميا) يتفقان على اللقاء :

ليساندر : فى مساء الغد عند ما تبصر (نيبى) طلعتها فى البحيرة ناشرة على العشب الأخضر لباساً من اللؤلؤ السيال — فى ذلك الوقت قد اتفقنا على أن نجتاز أبواب أثينا ونمضى هاربين

هرميا : وفى نفس الغابة حيث اعتدنا اللقاء ، وحيث كنا أحياناً نرقد على العشب اللين الرخص ونشم أنفاس الزهر الوحشى . هناك يلقى أحدنا الآخر ، أى ليساندر !

ويضل كل من العاشقين سبيله وينهكهما البحث والفكر فيرقد كل تحت شجرة من أشجار الغاب ويغلب عليهما النعاس فما يدريان من أمرهما شيئاً ، ويأتى (پك) رسول ملك الجان فيهصر فى عيونهما الفتى زهرة من أزهار الغاب سحرية تغير قلبه

(١) استعرت هذا العنوان من رسائل أستاذى الجليل محمد فريد أبو حديد التى كان ينشرها تحته فعسى أن يسمح الأستاذ لى بالاستعارة وعسى أن أوفق فى إيفاء الاسم بعض ما وفاه هو من الحق